بسم الله الرحمن الرحيم

❖ توطئة مفيدة

[من ظلام الجاهلية إلى نور الإسلام](1)

أمَّة على هامش التَّاريخ، جاهليَّة وشرٌّ، ظلم وقهر، ظلام دامس، وجهل طامس لبريق الآدميَّة، وطفولة عقليَّة تجعل من الحجر الأصمِّ إلهًا يُعبد، وربًّا إليه في النَّائبات يُصمد، حياة إذا فَتَّش مُريد وصفها في معاجم اللُّغات؛ لم يَظْفَرْ بلفظ أنسب بها من ضدِّها، إنها حياة أشبه بالممات.

ولكنَّ ربَّك ذو رحمة واسعة، وحكمة بالغة، وهو القادر على أن يُخْرِج الحَيَّ من الميِّت، والميِّت من الحَيِّ، فلا جَرَم أن يُخْرِج رَحِم تِيكَ أمَّة الحياة، الأمَّة التي تبعث الرُّوح في الكون الفسيح، وتُسْرِج العالم بأنوار الإيمان؛ تنبثق وهَّاجة من مشكاة غار حراء، إنها: ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 110].

❖ قريش في غياهب الجاهلية الأولى

يتغنَّى النَّاس بجمال القمر، ويجعلونه منتهى الوصف بالحسن والبهاء، لكنَّهم قد يغفلون عن سرٍّ دقيق، وهو أن جمال القمر بنور بياضه؛ إنَّما هو ممَّا حَفَّه من سواد الظلام.

فالوَجْـهُ مثـلُ الصُّـبْحِ مُبْـيَضُّ ... والشَّـعْرُ مثـلُ اللَّيْـلِ مُسْـوَدُّ

ضِـدَّان لَمَّـا اسْـتَجْمَعا حَسُـنَا ... والضّـدُّ يُظْهِـر حُسْـنَه الضّـدُّ

---

(1) للتصميم: يمكن جعل هذه الصفحة صورة لشروق الشمس.

ومن هنا، فلن تُشِعَّ في قلبك – أيُّها المسلم – أنوار الإيمان على حقيقتها؛ حتَّى تدرك حجم ظلمات الجاهليَّة التي رزح تحت أغلالها مجتمع قريش؛ حين خاطبهم النَّبيُّ محمَّد ﷺ بخطاب النُّور والعلم والإيمان، فقال: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥﴾ [العلق: 1 – 5]. ومن هنا أيضا تدرك مدى بُعْد نَظر الفاروق رضي الله عنه لمَّا كان يقول: «**إِنَّمَا تُنْقَضُ عُرَى الْإِسْلَامِ عُرْوَةً عُرْوَةً إِذَا نَشَأَ فِي الْإِسْلَامِ مَنْ لَمْ يَعْرِفْ الْجَاهِلِيَّةَ**»[1].

فدونَك – أخي الكريم – جملة من أوصاف أهل الجاهليَّة الذين بُعث فيهم نبيُّنا محمَّد ﷺ، حتى تتَّضح لك معالم السَّير معنا في هذا الكتاب.

❖ صفات أهل الجاهلية من قريش

● أولا: الجاهليون: عقول غريبة، وقلوب قاسية

ما أكثر خطاب القرآن الكريم للعقل الإنسانيِّ في آياته، وما أعظم خطر القلب في نصوص السُّنة النَّبويَّة، حتَّى وَصَفَه الصَّادق المصدوق ﷺ بقوله: «**أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ، فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ**»[2]. إذا عرفت ذلك، سهل عليك تصوُّر فساد

---

(1) نقله بهذا اللَّفظ شيخ الإسلام ابن تيميَّة في مجموع الفتاوى، طبعة ابن قاسم (10 /301)، وقد حقَّق الأثرَ بعضُ الباحثين، فقرَّر أنَّ اللَّفظ المنقول في مجموع الفتاوى هو تلفيق بين حديث النبي ﷺ وكلام عمر رضي الله عنه.

(2) رواه البخاري (20/1 رقم: 52) ومسلم (1219/3 رقم: 1599) وغيرهما.

قلوب الجاهليِّين وعقولهم، لِمَا اصطبغت به أَدْرَان الجهل، والكفر، والشِّرك، والعناد.

إنَّ أعظم شاهد على فساد عقولهم هو غرابة دينهم، يتَّخذ الرجل منهم ربًّا يعبده: يتقرَّب إليه بأصناف القربات، يرجوه ويخشاه، يسأله ويستعينه، يدعوه و يستغيثه، وهذا الرَّب هو أحوج مخلوق إلى عابده المشرك الجاهليّ، أتدري لم؟ لأنَّ هذا العابد المشرك هو الذي صنع الرَّبَّ المعبود: من حجر التقطه، أو خشب احتطبه، أو تمر جناه، وكثيرًا ما يجوع هذا المشرك، فيأكل ربَّه الذي لطالما عبده، وطلب منه أن يرزقه من طيِّب الطَّعام!! فأيُّ عقول أغرب من هذه العقول؟!

هذا، وإنَّ أهل الجاهلية تشابهت عقولهم، وإن تباعدت عصورهم، ففي الماضي حجر في جزيرة العرب، وفي الحاضر بقرة وبُوذا في الهند، وفي أمريكا المتحضِّرة: هرم تقصده طائفة منهم في السَّنة مرَّتين، تعبده وتسجد له.

ومن أفظع مظاهر قسوة قلوبهم؛ أن الرَّجل منهم يأخذه الحزن الشَّديد، ويَنْتَابه الكرب العظيم، لا لشيء، إلَّا لأنَّه رُزِق بأنثى لطيفة، وفي هذا يقول الله ﷻ: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾ [النحل: 58].

نعم، إنَّها قسوة شديدة طمست مشاعر الإنسانيَّة؛ حتَّى قلبت موازينها رأسًا على عقب، فصار الخبر السَّار بالمولود الجديد؛ سببا للحزن الشَّديد. وليت الأمر وقف عند هذا الحد ولم يَزِدْ، كلَّا لقد شوَّهت الجاهلية شعور الحنان الأبويِّ؛ حتَّى صيَّرته وحشًّا بشريًّا ينتظر تلك الأنثى الجميلة تَدُبُّ على رجليها إليه لتعانقه، فيحملها ويحفر لها في رمضاء الصَّحراء فيدفنها وهي

حيَّة تتألَّم. قال تعالى: ﴿يَتَوَارَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [النحل: 59].

● ثانيا: الجاهليون: بغي وعدوان

ومن مظاهر الجاهليَّة الأولى: ارتكاز المبدأ الاجتماعيِّ فيها على قاعدة البغي والعدوان، فالظُّلم عندهم منهج حياة، بل أنشودة جميلة يتغنَّون بها، فيقول شاعرهم:

وَأَنّا النّـــازِلُونَ بِكُـــلّ ثَغْـــرٍ ... يَخَـــافُ النّـــازِلُونَ بِـــهِ المَنُـــونَا

وَنشْـــرَبُ إنْ وَرَدْنا المـــاءَ صَـــفوًا ... وَيَشْـــرَبُ غَيْـــرُنا كَـــدَراً وطِينَـــا

ويقول الآخر:

ومَنْ لَا يَذُدْ عَنْ حَوضِهِ بسِلاحِهِ ... يُهَدَّمْ، ومَنْ لَا يَظْلِم النَّاس يُظْلَمِ

وممَّا يطلعك على فظاعة الظُّلم الذي كان يمارسه من يسمُّونهم بأشراف قريش: قصَّة أبي جهل مع الرَّجل الإراشيِّ، وقد نقلها بطولها ابن هشام في سيرته[1]، وسأسوقها مختصرة بما يفي بلُبِّ المُراد:

قَدِمَ رَجُلٌ مِنْ إرَاشٍ[2] بِإِبِلٍ لَهُ مَكَّةَ، فَاشْتَرَاهَا مِنْهُ أَبُو جَهْلٍ، ثُمَّ أَبَى أَنْ يُؤَدِّيَ ثَمَنَها، فَأَقْبَلَ الرَّجُلُ عَلَى جَمَاعَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ، فَشَكَا إِلَيْهِمْ أَبَا جَهْلٍ، فَدَلُّوهُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ اسْتِهْزَاءً بِهِ؛ لِمَا يَعْلَمُونَ مِنْ الْعَدَاوَةِ بَيْنَهُ ﷺ وَبَيْنَ أَبِي جَهْلٍ. فَأَقْبَلَ الرَّجُلُ حَتَّى وَقَفَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَشَكَا إِلَيْهِ أَمْرَهُ مَعَ أَبِي جَهْلٍ، فقام رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وقَالَ: «**انْطَلِقْ إلَيْهِ**»، فانطلقا حَتَّى ضَرَبَ عَلَى أبي جهل بَابَ

(1) انظر: السِّيرة النَّبوية لابن هشام (27/2).

(2) قبيلة من قبائل العرب.

داره، فَخَرَجَ الظَّالِمُ مَذْعُورًا قَدْ تَغَيَّرَ لَوْنُهُ، فَقَالَ له رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «**أَعْطِ هَذَا الرَّجُلَ حَقَّهُ**»، قَالَ: نَعَمْ، لَا تَبْرَحْ حَتَّى أُعْطِيَهُ الَّذِي لَهُ، قَالَ: فَدَخَلَ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ بِحَقِّهِ، فَدَفَعَهُ إِلَيْهِ. ثُمَّ انْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَقَالَ للرجل: «**الْحَقْ بِشَأْنِكَ**».

وفي القصَّة تفاصيل منها سبب ذعر أبي جهل؛ ممَّا يؤيِّد صدق نبوَّته ﷺ من المعجزات، غير أنَّ لبَّ المراد منها أنَّ دناءة البغي كانت صفة لأشراف المجتمع القرشيِّ الجاهليِّ.

إنَّ الضَّعيف فيهم مُستصغَر، عرضة لسطوة الظَّلمة والبُغاة، فإن كان له بقيَّة مال فهي هَدَر متى بطش به القويُّ، وليس يأمن على نفس له وعرض، وأهل، وحريَّة، فكم من حرٍّ أُخِذ في طريق واستُعبِد، إلَّا أن يكون له من أقويائهم مُجِير.

وإنَّ الغنيَّ منهم مستكبِر؛ لذلك شاع فيهم إسبال الثِّياب للخُيَلاء، فكان أهل الدُّنيا منهم يُرْخون الذُّيول أشبارًا في الطَّريق، وبِطُول الذَّيل تزداد المناعة من قرب ضعاف النَّاس من هذا المختال الفخور، فالإسبال كان بمثابة الحارس الشَّخصي للمتكبِّرين، فأيُّ سطوة اجتماعية أفظع من هذه؟! على ما في هذه السَّطوة من قذارة، فالمُسْبِل بذيله يجمِّع ما تفرَّق من نجاسات الطَّريق.

● ثالثا: الجاهليون: عقول خاوية على عروشها

إنَّ العقل الذي انحدر في حضيض الشِّرك الموصوف آنفًا؛ لا يستطيع البتَّة إنجاز أمر رفيع على صعيد ما، سواء في السِّياسة، أو الاقتصاد، أو الثَّقافة. فلْنُسَلِّط نور النَّقد على آخر مذكور، فنطرق باب المؤتمر العربيِّ الجاهليِّ: **سوق عكاظ**، حيث كان يجتمع فيه الشُّعراء من شتَّى القبائل، فينشدون القصائد

البليغة الطَّويلة، وهي على أهمِّيَّتها اللُّغوية والتَّاريخيَّة؛ إلَّا أنَّ المقصود هنا هو تعبيرها عن خواء العقل الجاهليِّ، فدَيْدَن الشَّاعر في قصيدته: تمجيد القبيلة، وتقديس العشيرة، ووصف حمرة الدَّم عند إزهاق النَّفس، وطول لهيب الحرب في الأخذ بالثَّأر، وتسلسل أجيال الحقد والانتقام. فإن خَفَّف الوطأة قليلًا، فإلى الكِبْر البالغ منتهاه في الفخر بالأنساب، وتقديس عقيدة الأجداد.

وهنا ينزل برد غيث الوحي النَّبويِّ؛ كي يطفئ تلك النَّار الجاهليَّة، حين يقول الصَّحابيُّ الجليل أبيُّ بن كعب ﷺ: **انْتَسَبَ رَجُلَانِ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا: أَنَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ بْنِ فُلَانٍ، فَمَنْ أَنْتَ لَا أُمَّ لَكَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «انْتَسَبَ رَجُلَانِ عَلَى عَهْدِ مُوسَى عليه السلام، فَقَالَ أَحَدُهُمَا: أَنَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ، حَتَّى عَدَّ تِسْعَةً، فَمَنْ أَنْتَ لَا أُمَّ لَكَ؟ قَالَ: أَنَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ ابْنُ الْإِسْلَامِ ". قَالَ: "فَأَوْحَى اللهُ إِلَى مُوسَى عليه السلام: أَنَّ هَذَيْنِ الْمُنْتَسِبَيْنِ، أَمَّا أَنْتَ أَيُّهَا الْمُنْتَمِي أَوِ الْمُنْتَسِبُ إِلَى تِسْعَةٍ فِي النَّارِ فَأَنْتَ عَاشِرُهُمْ» ..."**[1].

إنَّ تقديس عقيدة الآباء كان رمز فخر لدى العربيِّ في الجاهليَّة، قد يمنعه من اعتناق الدِّين الحقِّ، وإن ظهر له صدقه، فهو يعرف الحقَّ ويستَمِيت في الدِّفاع عنه، ويتجشَّم المكاره في سبيل ذلك، لكنَّه لا يَدين به، فإذا سُئِل أجاب بكلمة أبي طالب عمِّ الرسول ﷺ:

وَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ دِينَ مُحَمَّدٍ ... مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ البَرِيَّةِ دِينَا

لَوْلاَ المَلاَمَةُ أَو حَذَارُ مَسَبَّةٍ ... لَوَجَدْتَنِي سَمْحاً بِذَاكَ مُبِينَا

هي الكلمة المغروزة في الضمير الجاهلي؛ النَّابتة من عقيدة فاسدة نَظَمها أبو طالب شعرًا، وسردها أبو جهل نثرًا لمَّا سئل عن سبب عداوته لمحمد ﷺ

(1) رواه الإمام أحمد في **المسند**، طبعة مؤسسة الرسالة (110/35).

رغم يقينه بصدقه، فقال: «**تَنَازَعْنَا نَحْنُ وَبَنُو عَبْدِ مَنَافٍ الشَّرَفَ، أَطْعَمُوا فَأَطْعَمْنَا، وَحَمَلُوا فَحَمَلْنَا، وَأَعْطَوْا فَأَعْطَيْنَا، حَتَّى إِذَا تَحَاذَيْنَا عَلَى الرَّكْبِ، وَكُنَّا كَفَرَسَيْ رِهَانٍ، قَالُوا: مِنَّا نَبِيٌّ يَأْتِيهِ الْوَحْيُ مِنْ السَّمَاءِ، فَمَتَى نُدْرِكُ مِثْلَ هَذِهِ، وَاَللَّهِ لَا نُؤْمِنُ بِهِ أَبَدًا وَلَا نُصَدِّقُهُ**»[1].

فلا عجب من ذلك إذن، ولا تعجب إذا نبَّأتك أنَّ تلك العقيدة في الأصل فلسفة **إبليسيَّة فرعونيَّة**، فإبليس أبى السُّجود لآدم ؛ حسدًا له، مع اعترافه بفضله عليه، وعصى رَبَّه مع قَسَمه بعزَّته: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾﴾ [ص: 82]. وكذلك فرعون كذَّب موسى ؛، وادَّعى أنَّه ساحر مفسد، ولكنَّ الله ﷻ أخبر عنه وعن قومه بقوله: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النمل: 14].

لكنَّ فلسفة فرعون بلغت منتهى السُّوء لمَّا قال؛ كما أخبر عنه القرآن الكريم: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِيٓۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الزُّخرُف: 51]، ثمَّ هو يعاني على فترات من ملكه مشكلة القحط والجفاف !! نعم، إنَّها الجاهلية وخواء العقول، تتجاوز الأمم والعصور، لتلتقي في بَطَر الحقِّ، وغَمْط النَّاس، وتقديس الوَثَن.

---

(1) السيرة النبوية لابن هشام (316/1).

ومن تفاهة عقولهم أنَّهم يعبدون اللَّات والعُزَّى، ومَنَاة الثَّالثة الأخرى، ويجعلونها منتهى الغاية في قدسيَّة الإرادة والطَّلب، حتَّى إذا نزلوا بملوك الشَّام والعراق، سجدوا لهم تقليدًا لحاشية الملك.

ومنها: مسألة الطِّيَرة، وحصول الفَأْل والشُّؤْم في قلوبهم؛ لتقليب عصفور جناحيه في السَّماء، فكان الواحد منهم يعلِّق مشروعه اليوميِّ أو الأسبوعيِّ، وحتَّى مشاريع السَّنة بتحليق أوَّل طائر يراه، أو يرسله عن يمين أو شِمَال، فأتوني بأتْفَهَ من عقل جاهليٍّ!!

ومن أسوء صفاتهم – وهو قريب من هذا الباب – صفة المُكابَرة، فآيات الحكمة والهدى تقرع آذانهم في كلِّ حين، لكنَّهم يسمعونها ولا يرفعون بها رأسًا؛ لما انْطَوَتْ عليه قلوبهم من المُكابَرة عن قَبول الحقِّ، ولقوَّة النُّور القرآنيِّ التي تكاد تخترق تلك القلوب الغِلاظ؛ اتَّخذوا صورًا عديدة لردِّ الحقِّ الصَّريح، ومنها ما كثرة اللَّغو، وإثارة الصَّخب عند سماع القرآن الكريم، كما أخبر الله ﷻ عنهم بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ٢٦﴾ [فُصِّلَت:26].

ومن صور ذلك: سعيهم في تحذير النَّازلين بمكَّة من الاستماع إلى النَّبِيِّ ﷺ، لا سيَّما من كان ذا شرف في قومه، كما حدث للطُّفَيل بن عمرو ﷺ قبل إسلامه، حتَّى حَشَا أذنيه قطنًا، فرارًا من سماع كلام النبي ﷺ، لكن الله كتب للطُّفيل السَّعادة فاخترق النُّور النَّبويُّ عينيه إلى قلبه، فما إن رأى وجه النبي ﷺ حتَّى شهد أنَّه المبعوث بالحقِّ.

وهنا يحسن بي سَوْقُ حادثة عصريَّة فيها نوع من تلك العقليَّة الجاهليَّة، حدثت لأحد أصدقائي القضاة. يقول: إنَّه لمَّا كان طالبًا بالجامعة، وكان في نقاش مع شخص معارض له في الرَّأي، وجاء دور القاضي لبيان رأيه وحجَّته،

فاشتدَّ رفض ذلك الشَّخص أن يسمع كلام القاضي، ولم يجد منفذًا للخروج من قاعة النِّقاش، فما كان منه إلَّا أن جَذَب خيط مُكبِّر الصَّوت فقطعه؛ قطعًا لصوت صديقي أن يُسْمَع؛ لأنَّه يُوقن من حاله العجز عن مقارعة الدَّليل بالدَّليل.

لذلك، فلزام على الشباب المسلم أن يتعلموا الإنصات كما يتعلمون الكلام، وأن يتفقَّهوا في أصول النَّقد والمراجعة، من غير مكابرة ولا صخب، إذ الصُّراخ حجَّة من لا حجَّة له[1].

● خامسا: الجاهليون وأكل الحرام

الكسب الحرام كان شائعًا في جاهليِّي قريش بصفة رهيبة، وقد سبق معنا قريبا قصَّة أحد أشرافهم أبو جهل مع الرجل الإراشيِّ، فأكل مال النَّاس بالباطل كان طريقة شائعة عندهم لتنمية المال، ناهيك عن السَّرقة، والنَّهْب، والاستثمار في دور الدَّعارة، والمتاجرة بالإماء طوعًا وكرهًا في البِغَاء، وسيأتي ذلك في موضعه.

وههنا ثلاثة أسئلة:

- **السُّؤال الأوَّل**: ما الدَّليل الشَّاهد بصدق ما ذُكِر؟
- **والثَّاني**: هل ما سبق تعديده من وسائل الكسب الحرام؛ أمر غير مرضيٍّ عندهم؟

وجوابهما في قصَّة بناء قريش للكعبة، فإنَّهم أجمعوا حينها على كلمة واحدة: «**لَا تُدْخِلُوا فِي بِنَائِهَا مِنْ كَسْبِكُمْ إِلَّا طَيِّبًا، لَا تُدْخِلُوا فِيهَا مَهْرَ بَغِيٍّ،**

(1) للتصميم: يمكن في هذا المبحث استعمال صور: مخ مخرب، أذن محشوة بالقطن، عيون، خيط ميكروفون مقطوع ... الخ

وَلَا بَيْعَ رِبًا، وَلَا مُظْلَمَةَ أَحَدٍ مِنْ النَّاسِ»[1].

- **والسُّؤال الثَّالث**: كيف تدلُّ القصَّة على تعاطيهم للكسب الحرام؟

وجوابه: أن قريشًا بأشرافها ومن معهم، بأموالهم وتجاراتهم، وما جمعوا من مال طيِّب، قصرت بهم النَّفقة، ولم يقدروا على إكمال بناء الكعبة، ممَّا يُنْبِئُك بحجم تعاطيهم للمال الحرام[2].

- **رابعا: الجاهليون: دعارة وقلة أدب**

المُتأمِّل في حال الجاهليَّة من هذا الوجه تلوح له حقيقة سيِّئة، عنوانها الفسوق، وقلَّة الأدب، وبذاءة القول وشناعة الفعل؛ حال سوء تُظِلُّ ذلك المجتمع المظلم المريض، ونحن إذ نوجِّه القلم نحو هذا الفجِّ الدَّنيء؛ لا بدَّ أن نأخذ منه بقدر ضرورة البيانِ؛ بيانِ ظلام الجاهليَّة، الذي يظهر لك فيما بعد أثر نور الإسلام، وكيف نَصَع وهَّاجًا في طهارة مجتمع الصَّحابة المهتدي بهداية الإيمان والإحسان.

- **بذاءة وسوء أدب**

وإنَّ ممَّا اجتمعت فيه ألوانٌ غريبة من الجاهليَّة: قضيَّة من كانوا يُسَمَّوْن **الحُمْسَ** وهم قريش، يتميَّزون بذلك عن سائر العرب، ويجعلون لأنفسهم قداسة بلغت حَدَّ طهارة ثيابهم طهارة مطلقة دون ثياب النَّاس، فلا يطوف العربيُّ بالبيت إلا في ثياب **الحُمْس**، فإن لم يجد طاف عريانًا، وتطوف المرأة عارية، وهي تقول[3]:

---

(1) السيرة النبوية لابن هشام (1/ 194).

(2) للتصميم: انفجراف صورة الكعبة، صور أموال.

(3) السيرة النبوية لابن هشام (1/ 187). **بَعْضه**: تقصد الفَرْج.

اليــومَ يَبْــدو بَعْضُــهُ، أَوْ كُلُّــهُ وَمَــا بَــدَا مِنْــهُ فَــلَا أحِلُّــه

فأيُّ دين هذا وأيُّ عقل وأيُّ خُلُق؟!

والقصَّة مشهورة رواها الإمام البخاريُّ في صحيحه؛ عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ، قَالَ عُرْوَةُ: «**كانَ النَّاسُ يَطُوفُونَ في الجَاهِلِيَّةِ عُرَاةً إلَّا الحُمْسَ، والحُمْسُ قُرَيْشٌ وما ولَدَتْ، وكَانَتِ الحُمْسُ يَحْتَسِبُونَ علَى النَّاسِ، يُعْطِي الرَّجُلُ الرَّجُلَ الثِّيَابَ يَطُوفُ فِيهَا، وتُعْطِي المَرْأَةُ المَرْأَةَ الثِّيَابَ تَطُوفُ فِيهَا، فمَن لَمْ يُعْطِهِ الحُمْسُ طَافَ بالبَيْتِ عُرْيَانًا، وكانَ يُفِيضُ جَمَاعَةُ النَّاسِ مِن عَرَفَاتٍ، ويُفِيضُ الحُمْسُ مِن جَمْعٍ، قالَ: وأَخْبَرَنِي أبِي، عن عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنَّ هذِه الآيَةَ نَزَلَتْ في الحُمْسِ**: ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ [البقرة: 199]، **قالَ: كَانُوا يُفِيضُونَ مِن جَمْعٍ، فَدُفِعُوا إلى عَرَفَاتٍ**»[1].

نعم، هذه القضيَّة جمعت ألوانًا مختلفة للضَّمير الجاهليِّ: كِبْر، واعتزاز بالعِرق، وتقديس للخرافة، وقلَّة أدب، وانعدام حياء، ولهذين الأخيرين سُقْتُ القضيَّة بقصَّتها.

ومن مظاهر قلَّة الأدب في المجتمع الجاهليِّ: الفحش في الكلام، واضحًا في شعر الغزل الماجن، وهو كلام جنسيٌّ بذيء، وكثيرًا ما كان يُتوسَّل به إلى فضح النِّساء ومراودتهنَّ للحرام، ولا يُقال إنَّه أمرٌ معزول بين أفراد، فإن الشِّعر كان **الجهاز الإعلاميَّ** المعتمد.

- **إباحية قذرة، ودعارة رسمية**

الزِّنى أمر سائغ؛ لا يُستحيى من الحديث عنه، بل الدَّعارة سلوك اجتماعيٌّ رسميٌّ في العرف الجاهليِّ، وليس هذا ادعاءً فارغًا من دليل، إنَّما هو

(1) رواه البخاري (2/ 163 رقم: 1665) ومسلم (2/ 893 رقم: 1599)، وغيرهما.

حقيقة تاريخيَّة ترويها لنا الصِّدِّيقة بنت الصِّدِّيق؛ أمُّنا عائشة ﵂ في الحديث الصَّحيح؛ الذي يصوِّر حال تلك الجاهليَّة الدَّنيئة:

عن[1] عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ أَنَّ عَائِشَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ أَخْبَرَتْهُ: «أَنَّ النِّكَاحَ فِي الجَاهِلِيَّةِ كَانَ عَلَى أَرْبَعَةِ أَنْحَاءٍ: فَنِكَاحٌ مِنْهَا نِكَاحُ النَّاسِ اليَوْمَ: يَخْطُبُ الرَّجُلُ إِلَى الرَّجُلِ وَلِيَّتَهُ أَوِ ابْنَتَهُ، فَيُصْدِقُهَا ثُمَّ يَنْكِحُهَا، وَنِكَاحٌ آخَرُ: كَانَ الرَّجُلُ يَقُولُ لِامْرَأَتِهِ إِذَا طَهُرَتْ مِنْ طَمْثِهَا: أَرْسِلِي إِلَى فُلاَنٍ فَاسْتَبْضِعِي مِنْهُ، وَيَعْتَزِلُهَا زَوْجُهَا وَلاَ يَمَسُّهَا أَبَدًا، حَتَّى يَتَبَيَّنَ حَمْلُهَا مِنْ ذَلِكَ الرَّجُلِ الَّذِي تَسْتَبْضِعُ مِنْهُ، فَإِذَا تَبَيَّنَ حَمْلُهَا أَصَابَهَا زَوْجُهَا إِذَا أَحَبَّ، وَإِنَّمَا يَفْعَلُ ذَلِكَ رَغْبَةً فِي نَجَابَةِ الوَلَدِ، فَكَانَ هَذَا النِّكَاحُ نِكَاحَ الِاسْتِبْضَاعِ. وَنِكَاحٌ آخَرُ: يَجْتَمِعُ الرَّهْطُ مَا دُونَ العَشَرَةِ، فَيَدْخُلُونَ عَلَى المَرْأَةِ، كُلُّهُمْ يُصِيبُهَا، فَإِذَا حَمَلَتْ وَوَضَعَتْ، وَمَرَّ عَلَيْهَا لَيَالٍ بَعْدَ أَنْ تَضَعَ حَمْلَهَا، أَرْسَلَتْ إِلَيْهِمْ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ رَجُلٌ مِنْهُمْ أَنْ يَمْتَنِعَ، حَتَّى يَجْتَمِعُوا عِنْدَهَا، تَقُولُ لَهُمْ: قَدْ عَرَفْتُمُ الَّذِي كَانَ مِنْ أَمْرِكُمْ وَقَدْ وَلَدْتُ، فَهُوَ ابْنُكَ يَا فُلاَنُ، تُسَمِّي مَنْ أَحَبَّتْ بِاسْمِهِ فَيَلْحَقُ بِهِ وَلَدُهَا، لاَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَمْتَنِعَ بِهِ الرَّجُلُ، وَنِكَاحُ الرَّابِعِ: يَجْتَمِعُ النَّاسُ الكَثِيرُ، فَيَدْخُلُونَ عَلَى المَرْأَةِ، لاَ تَمْتَنِعُ مِمَّنْ جَاءَهَا، وَهُنَّ البَغَايَا، كُنَّ يَنْصِبْنَ عَلَى أَبْوَابِهِنَّ رَايَاتٍ تَكُونُ عَلَمًا، فَمَنْ أَرَادَهُنَّ دَخَلَ عَلَيْهِنَّ، فَإِذَا حَمَلَتْ إِحْدَاهُنَّ وَوَضَعَتْ حَمْلَهَا جُمِعُوا لَهَا، وَدَعَوْا لَهُمُ القَافَةَ، ثُمَّ أَلْحَقُوا وَلَدَهَا بِالَّذِي يَرَوْنَ،

(1) للتصميم: يمكن صب الحديث في أشكال متنوعة حسب أقسام الأنكحة المذكورة.

فَالْتَاطَ بِهِ، وَدُعِيَ ابْنَهُ، لاَ يَمْتَنِعُ مِنْ ذَلِكَ «فَلَمَّا بُعِثَ مُحَمَّدٌ ج بِالحَقِّ، هَدَمَ نِكَاحَ الجَاهِلِيَّةِ كُلَّهُ إِلَّا نِكَاحَ النَّاسِ اليَوْمَ»[1].

فلا يسع العاقل بعد قراءة هذا الحديث؛ إلَّا أن يقول: إنها الإباحية الجنسية الجاهلية في أدنس مظاهرها.

ومن هنا تدرك سرَّ الحكمة النَّبوية، في التَّنبيه على شرف البيت الهاشميِّ؛ حُضْنِ النبوَّة والرِّسالة المحمديَّة، حين قال رسول الله ﷺ: «**خَرَجْتُ مِنْ نِكَاحٍ، وَلَمْ أَخْرُجْ مِنْ سِفَاحٍ، مِنْ لَدُنْ آدَمَ إِلَى أَنْ وَلَدَنِي أَبِي وَأُمِّي، لَمْ يُصبْنِي من سفاحِ الجاهليةِ شيءٌ**»[2].

هذا، ولم يكن الزِّنى في المجتمع الجاهليِّ مجرَّد شهوة وقضاء وَطَر، بل كان مصدرًا ماليًّا مهمًّا لديهم، بل لدى شرفائهم، وهذا في القرآن الكريم عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ إِنۡ أَرَدۡنَ تَحَصُّنٗا لِّتَبۡتَغُواْ

---

(1) رواه البخاري (15/7 رقم: 5127) وغيره. **غريب الحديث**: (**أنحاء**): أنواع. (**وليته**): من في ولايته. (**فيصدقها**): يجعل لها مهرا معينا. (**طمثها**): حيضها. (**فاستبضعي منه**): اطلبي منه المباضعة، وهي المجامعة مشتقة من البضع وهو الفرج. (**يمسها**): يجامعها. (**نجابة الولد**): أي: ليكون نفيسًا في نوعه. (**الرهط**): ما دون العشرة من الرجال. (يصيبها): يجامعها. (البغايا): جمع بغي وهي الزانية. (**رايات**): جمع راية، وهي شيء يرفع ليلفت النظر. (**علما**): علامة. (**القافة**): جمع قائف وهو الذي ينظر في الملامح ويلحق الولد بمن يرى أنه والده. (**فالتاط به**): فالتحق به والتصق. (**هدم**): أبطل». اهـ من تعليق محقق الصحيح (15/7).

(2) رواه أبو نعيم في "**أعلام النبوة**" (11/1)، وابن عساكر في "**تاريخ دمشق**" (20/7 رقم: 52)، وحسَّنه الألباني في إرواء الغليل (6/ 329).

عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَمَن يُكۡرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعۡدِ إِكۡرَٰهِهِنَّ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣٣﴾﴾ [النور:33].

ولا يتَّضح لك معنى الآية الكريمة حتَّى تعلم سبب نزولها، وهو «**أَنَّ جَارِيَةً لِعَبْدِ اللهِ بنِ أُبَيٍّ ابْنِ سَلُولَ يُقَالُ لَهَا: مُسَيْكَةُ، وَأُخْرَى يُقَالُ لَهَا: أُمَيْمَةُ، فَكَانَ يُكْرِهُهُما عَلَى الزِّنَا، فَشَكَتَا ذلكَ إلى النَّبِيِّ ﷺ، فأنْزَلَ اللَّهُ:** ﴿وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ﴾ **إلى قَوْلِهِ:** ﴿غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣٣﴾﴾ [النور: 33]»[1].

فهذا رأس المنافقين، رغم إعلانه الإسلام ظاهرًا، إلَّا أن دفائن الجاهليَّة لا بدَّ أن تُنبش من قلبه، فتظهر في استثمار الأموال – على كُرْه – من بِغاء الإماء.

ثمَّ – في كثير من الأحيان – يريد مثل هذا الجاهليِّ حفظ قطرة من ماء شرفه، فيدَّعي أنَّ هذه التِّجارة حلٌّ له في أمته الرقيقة، دون كريمته الحرَّة!!

- **لماذا التحذير من الجاهلية؟**

ونحن إذ نشرِّح الجاهليَّة هذا التَّشريح الدَّقيق المديد؛ ونحذِّر منها هذا التَّحذير الغليظ الشَّديد؛ فلسنا نحذِّر من صفات عارضة زائلة، أو أعراف قديمة بائدة، وإنَّما نشدِّد النَّكير على عقيدة فاسدة، ومنهج خطير؛ يجب على المسلم البراءة منه، ومن أهله في كل زمان ومكان؛ إذ الجاهلية ليست مرحلة تاريخيَّة زالت بزوال أهلها، وإنما هي عقيدة قد يتبنَّاها آحاد النَّاس أو مجموعهم بصفة ما؛ في أيِّ زمان ومكان.

---

(1) رواه مسلم (4/ 2320 رقم: 3029)، وغيره.

ويكفي لتوضيح القصد هنا قضية التَّبرُّج والسُّفور، هذا الوباء الذي يسري في نساء المسلمين على أنماط وأشكال، حتى إنَّه – ولفشوِّه في مجتمعات المسلمين – صار المتجوِّل في شوارعها لا يرى – في كثير من الأحيان – فرقًا كبيرًا بينها وبين شوارع الكفَّار. فإذا قرأ قول الله ﷻ: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب:33] استأنس قليلا بظاهر الآية؛ إن لم يكن مطَّلعا على تفسيرها، ظنًّا منه أنَّ تبرَّج الجاهليَّة الأولى شيء فظيع، لا يمكن لامرأة مؤمنة أن تتلطَّخ برِجْسه.

غير أنَّ العارف بمعاني آيات الكتاب الحكيم، والمطَّلع على تفسير هذه الآية تحديدًا، تظهر له حقيقة أخرى: أن تبرُّج الجاهليَّة الأولى لم تسلم منه طائفة من مرتديات الحجاب من المسلمات، بَلْهَ غيرهن من المتبرِّجات.

قال ابن كثير رحمه الله: «وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ يَقُولُ: إِذَا خَرَجْتُنَّ مِنْ بُيُوتِكُنَّ – وَكَانَتْ لَهُنَّ مِشْيَةٌ وَتَكَسُّرٌ وتغنُّج – فَنَهَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ. وَقَالَ مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ **وَالتَّبَرُّجُ**: أَنَّهَا تُلْقِي الْخِمَارَ عَلَى رَأْسِهَا، وَلَا تَشُدُّهُ فَيُوَارِي قَلَائِدَهَا وَقُرْطَهَا وَعُنُقَهَا، وَيَبْدُو ذَلِكَ كُلُّهُ مِنْهَا، وَذَلِكَ التَّبَرُّجُ، ثُمَّ عُمَّتْ نِسَاءُ الْمُؤْمِنِينَ فِي التَّبَرُّجِ»[1].

لا بدَّ للمتبرجة أن تدرك شناعة التبرج و إثمه؛ الذي بلغ من القبح أن النَّبي ﷺ قال فيه: «**صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا، قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ، وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مُمِيلَاتٌ مَائِلَاتٌ، رؤوسهن**

(1) تفسير القرآن العظيم (410/6).

كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ، لَا يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ، وَلَا يَجِدْنَ رِيحَهَا، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا»[1].

قول النبي ﷺ: «**كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ**»، يشمل جميع أنواع الموضة العصريَّة الخبيثة، فشيطانات الموضة لا يُصمِّمْن لباسًا إلَّا وهو يستر جزءًا من بدن المرأة؛ ليعرِّيَ ويفضح أجزاءً قصد الفتنة والإغراء، فكان هذا التعبير النبوي القصير البليغ؛ توصيفًا دقيقًا لشيطانيَّة الموضة الخبيثة، وآية على صدق النُّبوة المحمديَّة.

ذلك، وليس المقصود من الاطلاع على الجاهلية مجرَّد دراسة حالة تاريخية أو ثقافية، وإنَّما هو أمر عمليٌّ سلوكيٌّ، يتمثل في كيفية إخراج المسلمين من الظلمات إلى النور من جهة، ومن جهة أخرى إعلان الحذر من تسلُّلها إلى القلوب، فإنَّها قد تلامس قلب المؤمن رغم صلاحه، ألمْ تسمع قول الصَّادق المصدوق، وهو يخاطب الصَّحابي الجليل العابد الزاهد، فيقول له ﷺ «**يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ**»[2].

فالقلب مَلِك الجوارح، صلاحها من صلاحه، وفسادها بفساده، وهو مع ذلك كثير التقلُّب بين الخير والشر، ولم يُسَمَّ قلبًا إلا لذلك، ومن هنا تدرك سرَّ دَيْدَن المعصوم ﷺ في دعائه: «**يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ**»[3].

---

(1) رواه مسلم (3/ 1680 رقم: 2128) وغيره.

(2) رواه البخاري (15/1 رقم: 30)، ومسلم (3/ 1282 رقم: 1661)، وغيرهما.

(3) رواه الترمذي (4/ 448 رقم: 2140)، وغيره. وحسَّنه الألباني في السلسلة الصحيحة (5/ 126رقم: 2091).

إذا تقرَّر ذلك واستقرَّ، فلا بدَّ من استحضار هذا الوجه القبيح الجاهليِّ؛ بكافة تجاعيده: تفاهة وظلم، قساوة قلوب، وخواء عقول، دعارة وقلة أدب، لا بدَّ من استحضاره طول سيرنا في الكتاب؛ لكي يلوح ناصعًا في قلبك بريق النُّور الإسلاميِّ؛ الذي به خرج جيل الصحابة ﷺ من تلك الظلمات.

وحقيق بالتَّنبيه، أنَّ من تسلُّل الجاهليَّة في هذا الزَّمن إلى المسلمين: خلاعة الإعلام، وترويجه للفاحشة بطُرُق شتَّى، بل ورفع شأن الزُّناة والبَغَايا، واستضافتهم في البرامج التلفزيونيَّة، إشاعةً للفاحشة في المؤمنين، وإمعانًا في طمس معالم الدِّين.

❖ مظاهر من جاهلية الأمم السابقة:

الإسلام دين الله الحق، ارتضاه للبشر، ولم يقبل منهم سواه، قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾﴾ [آل عمران:19]، والرسل جميعهم من لَدُنْ نوح إلى محمد ﷺ، متفقون على الدعوة إلى عقيدة الإيمان والتوحيد، قال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [النحل:36].

وههنا عرض تأكيديٌّ سريع لعَبَثيَّة الجاهليَّة في كل زمن، ومحطُّ الكلام بعض الأزمنة السَّابقة لجاهليَّة قريش.

● جاهلية عاد

كانوا أهل بطش جبَّارين، لم يُخلق مثلهم في البلاد، ومن مظاهر العَبَثيَّة فيهم؛ ما أنكره عليهم نبيهم هود عليه السلام من كثرة البنيان لغير حاجة أو

ضرورة: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الشعراء:128-130]

- **جاهلية ثمود**

ولم تختلف ثمود عن عاد في مظاهر العبث الجاهليِّ، استكثارٌ في البنيان، وقطع للصُّخور فنَحْتٌ للجبال بيوتًا، كما قَصَّه الله تعالى عنهم في القرآن: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الشعراء:149]، وهذا هو معنى قول الله ﷻ: ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾﴾ [الفجر:9] أي: قَطَعُوه.

- **الجاهلية من خلال قصة يوسف عليه السلام**

وهنا لون آخر من الجاهليَّة، إنه تباهي النساء بعشق الرجال، ومراودتهم على الفاحشة، ولم تكتفِ امرأة العزيز بذلك، حتى استدعتْ صواحبها، وأطلعتْهُنَّ على جمال يوسف عليه السلام، وتباهَتْ بإصرارها على مراودته عن نفسه، بل توعَّدَتْه إن لم يستجب بالسجن والصَّغار: ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [يوسف:32]

- **جاهلية ثمود**

وتلك جاهلية تأنف من قبحها البهائم، قوم مُسِخ ضمير الفطرة فيهم حتى تركوا ما أحلَّ الله لهم من الاستمتاع بالنساء، وانكبُّوا على فاحشة سبقوا بها الأمم، يأتون الذُّكران من العالمين.

وإذا سَبَرْتَ أحوال العالم اليوم، تبيَّن لك أن جاهليَّة قوم لوط بفاحشتهم؛ صارت إحدى ركائز النِّظام العالمي الماسوني الجديد، فالشُّذوذ

الجنسي صار ثقافة مفروضة، بل محميَّة بقوانين العهر الماسوني، إلى درجة اعتبارها طريقة مشروعة للزَّواج.

- **الجاهلية الاقتصادية في قوم شعيب**

المال عصب الحياة، وحفظه مقصد من مقاصد الشرع؛ لذلك شدَّد الله تعالى النَّكير على أهل مَدْيَن لما تلاعبوا به، فأكلوا أموال النَّاس بالتَّطفيف في الميزان، وبخس الناس أشياءهم، والإفساد في البلاد، فخاطبهم شعيب عليه السلام خطاب الناصح الأمين: ﴿۞أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ ١٨١ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ ١٨٢ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ١٨٣﴾ [الشعراء:181-183].

❖ خروج جيل الصحابة من الظلمات إلى النور

سبق تفصيل حال جاهلية قريش بما لا يحتمل المزيد، ولا ريب أنَّ الصحابة رضي الله عنهم قبل الإسلام؛ كانوا جزءًا من ذلك المجتمع الغارق في الظلمات، فحَرِيٌّ بالمؤمن أن يتطلع لمعرفة النور الذي أنار لجيل الصحابة طريقهم إلى العزَّة بالإسلام، والسعادة بالإيمان، وانتشلهم من قرية على هامش التاريخ، إلى سادة للأمم وقادة للتاريخ.

إنَّه الهدى، إنَّه الرُّوح، إنَّه النُّور الذي أشرق في قلوب الصَّحابة رضي الله عنهم فنقلهم بين حياتين كأنهما الدنيا والآخرة، إنَّه **القرآن الكريم**[1]: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ

(1) للتصميم: صورة مصحف ينبعث منه النور.

مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى:52] ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾ [البقرة:1-2].

لكن لقائل أن يقول: القرآن معجزة الله الخالدة، وهو الكتاب المحفوظ بحفظ الله الحفيظ، ولا يخلو بيت مسلم من مصحف شريف، فما بال أمة الإسلام؟! **فالجواب** يسيرٌ على مرارة مذاقه: إنَّ الذي أخرج الصحابة ﷺ من حمأة الجاهلية، ورفعهم إلى قمة السُّؤْدُد ليس مجرَّد حروف القرآن المكتوبة في السطور؛ أو المحفوظة في الصدور، إنما هو ما حَوَاه من الهدى، والروح، والنور حين خالطت بشاشته القلوب، فأثمرت زكيَّ الأقوال والأعمال.

وهذا هو المنطلق في معرفة الصراط النوراني؛ الذي بلغ بالصَّحابة ﷺ عزَّ الأولى وسعادة الآخرة، وهو الموضوع المعقود له هنا زمام الكلام.

هذا، ونحن سائرون على هذا الصراط؛ فلا غفلة عن أمر مهم جسيم: أن الهداية إليه، والتوفيق فيه، والثبات عليه، إنما من الله ﷻ، وهذا هو السر في أن الله لا يذكر الإخراج من الظلمات إلى النور إلا ويُسنده إلى نفسه غالبا.

فالقصد: تبصير الداعية المسلم بالمنهج الإسلامي النُّوراني في الدعوة إلى الله، الذي إذا تشرَّبه أخرج الله ﷻ بشمس دعوته صنوفًا من المنتسبين إلى الإسلام من ظلمات الشرك، والبدع، والمعاصي، إلى أنوار التوحيد، والطاعة، والسُّنة.

هذا من وجه، ومن وجه آخر: حتَّى يوقن الشاب المسلم الغارق في ظلمات المعاصي – أو وَحْل التفاهات في أرحم الحالات – أنَّ سلوكه سبل

الصلاح والإصلاح ليس عنه ببعيد، وأنْ ليس بينه وبين ذلك الشَّرف السَّامي إلا يقين بقوله ﷻ: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾[الأنعام:155]؛ أمانةً وتكليفًا، فيناله قوله ﷻ: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة:257] تكريمًا وتشريفًا.

وهل كان كثير من أهل العقبة[1] إلا شبابًا، حملوا هم أمَّتهم المنهكة من حروب أهلية؛ يؤجِّج نارها يهود خَيْبَر وقَيْنُقاع، فكان لقاءهم بالنَّبِيِّ ﷺ وإيمانهم به، ثمَّ مبايعتهم له؛ إيذانًا بخروجها من ظلمات الشرك ونيران الحروب، إلى نور الإسلام وبرد والسَّلام.

❖ مدح الله ﷻ والنبي ﷺ للصحابة رضي الله عنهم

عشرات النُّصوص القرآنيَّة والحديثيَّة في مدح هذا الجيل الفريد، والمقصود هنا الوقوف على شَذَرات منها، والقصد من ورائه لفت النظر إلى مديح شريف من ربِّ العزة ﷻ ونبيِّه ﷺ لذلك الجيل العظيم، وهذا الأمر بمفرده فضيلة كبرى ونقيبة عظمى للصَّحابة رضي الله عنهم. وكذلك الوقوف على كلمات كبيرة في حقِّهم، تنبِّئك بعظيم المنزلة لهم عند الله ورسوله ﷺ.

يقول الله ﷻ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ

---

(1) المقصود بهم شباب الأنصار الذين بايعوا النبي ﷺ بيعة العقبة الأولى والثانية. انظر في تفصيلها: **الرحيق المختوم**، صفي الرحمن المباركفوري، دار الهلال – بيروت، الطبعة الأولى (ص 129) فما بعد.

شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾ [الفتح:29].

ويقول ﷻ أيضا: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة:100]. ثناء كبير من رب العالمين، وإعلان للرضا على جيل الصحابة الأبرار، وما أعظمها من كلمة: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾.

ويزيدها تحقيقًا وتأكيدا فيقول ﷻ: ﴿۞لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾ [الفتح:18]. لماذا؟ لأنَّه: ﴿كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ﴾ [المجادلة:22]، ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾ [الفتح:26].

وبعد أن كانوا ﭫ في تلك الجاهلية المظلمة المخيفة، إذا هم أولاء جنود لله يواجهون طغيان الجاهلية بسيوف الحق في بدر الكبرى، ونبيُّهم ﷺ مستقبِلُ القبلة رافعٌ يديه إلى السماء؛ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ: «**اللهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي، اللهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعْبَدْ فِي الْأَرْضِ**»[1]. لقد صاروا بلمح البصر أُمَناء على أمة ومستقبل دينها.

---

(1) رواه مسلم (3/1383 رقم: 1763) وغيره.

فلتحذر إذن أن تَمَسَّ جانبهم بسوء، فتهلك: «**إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللهَ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ، فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ**»[1].

إنها الجنة شُمَّ عَرْفُها في ذلك المجتمع النُّوراني: اسمع نبيَّ الله ﷺ وهو يقول: «**أَبُو بَكْرٍ فِي الجَنَّةِ، وَعُمَرُ فِي الجَنَّةِ، وَعُثْمَانُ فِي الجَنَّةِ، وَعَلِيٌّ فِي الجَنَّةِ، وَطَلْحَةُ فِي الجَنَّةِ وَالزُّبَيْرُ فِي الجَنَّةِ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ فِي الجَنَّةِ، وَسَعْدٌ فِي الجَنَّةِ، وَسَعِيدٌ فِي الجَنَّةِ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الجَرَّاحِ فِي الجَنَّةِ**»[2].

إذا ذلك كذلك فـ «**لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، مَا أَدْرَكَ مُدَّ أَحَدِهِمْ، وَلَا نَصِيفَهُ**»[3].

وإني – والله – كلَّما قرأت قول رسول الله ﷺ: «**وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ**»[4]؛ كلما قرأته أيقنت أن الصحابة رضي الله عنهم هم أسعد الناس بحمل لواء هذا الفضل العظيم.

وإني كلما تعجَّبت من قوَّة أثر نور الإسلام في قلوبهم، زال عَجَبي إذا قرأت تحليل عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه لطبيعة تلك القلوب بكلامه البليغ: «**إِنَّ اللهَ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَوَجَدَ قَلْبَ مُحَمَّدٍ ﷺ خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ،**

---

(1) رواه البخاري (4/ 59 رقم: 3007)، ومسلم (4/ 1941 رقم: 2494)، وغيرهما.

(2) رواه الترمذي (5/ 647 رقم: 3747) وصحَّحه الألباني.

(3) رواه البخاري (5/8 رقم: 3673)، ومسلم (4/1967 رقم: 2540) واللفظ له.

(4) رواه البخاري (8/105 رقم: 6502) وغيره.

فَاصْطَفَاهُ لِنَفْسِهِ، فَابْتَعَثَهُ بِرِسَالَتِهِ، ثُمَّ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ بَعْدَ قَلْبِ مُحَمَّدٍ، فَوَجَدَ قُلُوبَ أَصْحَابِهِ خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَجَعَلَهُمْ وُزَرَاءَ نَبِيِّهِ، يُقَاتِلُونَ عَلَى دِينِهِ، فَمَا رَأَى الْمُسْلِمُونَ حَسَنًا، فَهُوَ عِنْدَ اللهِ حَسَنٌ، وَمَا رَأَوْا سَيِّئًا فَهُوَ عِنْدَ اللهِ سَيِّئٌ»[1].

كلمات عظيمة من ربٍّ عظيم ونبيٍّ رحيم، في جيل من المؤمنين كريم، تشوِّق القارئ إلى التعرف على سرِّ ذلك الثناء الإلهي والمديح النبوي، وذلك ما سنشير إليه إشارات كاشفة عن السر، غير مُسْهَبة في الرواية والنقل، فإن هذين موضعهما كتب التاريخ والسِّيَر.

❖ صفات جيل النور: الصحابة الكرام رضي الله عنهم

في لمحة وجيزة من الزمن، ينتقل جيل الصحابة من تلك الحال الجاهلية المظلمة، إلى حَمَلة للنور نحو الأمم، وتحولوا من مجتمع يسوده الرعب النفسي والحسِّيِّ؛ إلى أمناء على مستقبل أمة ودينها، وإن هذا لأمر عظيم، وسرُّ عظمته نابع من قوة الأثر النُّورانيِّ، وذلك ماثل في أن الخروج من الظلام إلى النور لم يكن بفناء جيل ومجيء صِنْوِه، وإنما تحقَّق في جيل بأشخاصه، وفي فترة قصيرة من أعمار الأمم.

والآن فلنستنشق أريجًا من نُسَيْمَات ذلك الجيل النُّورانيِّ، وإلا فالإحاطة بأوصافه تامةً أمر عسير.

● الصحابة رضي الله عنهم أبعد الناس عن الحرام

وهذا متقرِّر عين اليقين لذلك الجيل في عصرهم، وثابت بالإجماع تواترًا قطعيًّا في العصور من بعدهم، لذلك أجمعت الأمة على عدالة الصحابة رضي الله عنهم، كما تقرَّر في مواضعه من كتب العلوم.

---

(1) رواه الإمام أحمد في المسند (84/6 رقم: 3600) وغيره. وحسَّن إسناده محققو المسند بإشراف شعيب الأرنؤوط.

ومما يُظهر لك البَوْن شاسعا بين جيل الصحابة ﷺ وغيره، هو تلك الكلمة التي خاطب بها أنس بن مالك ﷺ جيل التابعين فقال: «**إِنَّكُمْ لَتَعْمَلُونَ أَعْمَالًا، هِيَ أَدَقُّ فِي أَعْيُنِكُمْ مِنَ الشَّعَرِ، إِنْ كُنَّا لَنَعُدُّهَا عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ المُوبِقَاتِ**» قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: «**يَعْنِي بِذَلِكَ المُهْلِكَاتِ**»[1]. نعم، إنه الورع المستمَدُّ من المدرسة المحمدية، من غير جفاء ولا رهبانية.

هذا صِدِّيق الأمة ﷺ يستقيء الطعام بعد أن أكله؛ لأنَّ صاحب الطَّعام أخبره أنه من مال حرام.

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ ﷺ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ رَأَى خَاتَمًا مِنْ ذَهَبٍ فِي يَدِ رَجُلٍ، فَنَزَعَهُ فَطَرَحَهُ، وَقَالَ: «**يَعْمِدُ أَحَدُكُمْ إِلَى جَمْرَةٍ مِنْ نَارٍ فَيَجْعَلُهَا فِي يَدِهِ**»، فَقِيلَ لِلرَّجُلِ بَعْدَ مَا ذَهَبَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: خُذْ خَاتِمَكَ انْتَفِعْ بِهِ، قَالَ: لَا وَاللهِ، لَا آخُذُهُ أَبَدًا وَقَدْ طَرَحَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ[2].

وتحرَّم الخمر، فتكسر آنيتها، وتسيل سواقي في أزقة المدينة. وتُوقَد النيران وتغلي القدور بالطعام؛ ليأكل منه جائعون محاربون، لكن يُسمع المنادي بتحريم لحوم الحُمُر الأهلية، فتُكْفَأ القدور، ويُرمى الطعام الحرام[3].

هؤلاء الذين اتصفوا بهذه الصفات هم الذين كانوا جزءًا من مكونات المجتمع الذي قصرت به النفقة في بناء الكعبة من الحلال. فتأمَّل أثر الإشعاع النُّورانيِّ الإيماني في تلك القلوب.

---

(1) رواه البخاري (1/ 103 رقم: 6492)، وغيره.

(2) رواه مسلم (3/ 1655 رقم: 2090)، وغيره.

(3) انظر: البخاري (4/ 96 رقم: 3155)، ومسلم (2/ 1027 رقم: 1407)، وغيرهما.

● **الصحابة ﷺ أعبد الناس**

وكونهم أعبد الناس ليس للكثرة فيه مدخل، وإن استفاضت عبادة كثير منهم، وإنما لما وقر في قلوبهم من صدق الإخلاص، وحب الله ورسوله، والاجتهاد في اتباع سنته ﷺ.

أما الليل فكانوا يقطّعونه ركوعًا وسجودًا، فهم أوَّل من يدخل في عباد الرحمن الموصوفين بقوله الله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَـٰمًا ﴿٦٤﴾﴾ [الفرقان:64]. وإذا لَذَّ للنَّاس فراش النوم، فإن الصحابة بينهم وبينه أعظم الخصومة والجفاء: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [السجدة:16].

وأما الذِّكر فهم الذاكرون الله كثيرًا والذاكرات، وخَتْم القرآن في سبع لأغلبهم عادة، وكثير منهم كان يختمه في ثلاث، وخَتَم القرآن في ركعة منهم نفر كعثمان بن عفان ﷺ، وهو إذ ذاك شيخ كبير[1].

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ عَنْ جُوَيْرِيَةَ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ مِنْ عِنْدِهَا بُكْرَةً حِينَ صَلَّى الصُّبْحَ، وَهِيَ فِي مَسْجِدِهَا، ثُمَّ رَجَعَ بَعْدَ أَنْ أَضْحَى، وَهِيَ جَالِسَةٌ، فَقَالَ: «**مَا زِلْتِ عَلَى الْحَالِ الَّتِي فَارَقْتُكِ عَلَيْهَا؟**» قَالَتْ: نَعَمْ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَقَدْ قُلْتُ بَعْدَكِ أَرْبَعَ كَلِمَاتٍ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، لَوْ وُزِنَتْ بِمَا قُلْتِ مُنْذُ الْيَوْمِ لَوَزَنَتْهُنَّ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، عَدَدَ خَلْقِهِ وَرِضَا نَفْسِهِ وَزِنَةَ عَرْشِهِ وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ**»[2].

---

(1) انظر: **المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج**، أبو زكريا يحي بن شرف النووي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثانية (42/8).

(2) رواه مسلم (4/ 2090 رقم: 2726)، وغيره.

والشاهد من القصة أن أمَّنا جُوَيْرِيَةَ ﵂ صَلَّت الصبح ولم تبرح مسجدها – أي: مكان صلاتها – حتى أتى النَّبيُّ ﷺ ضحىً وهي تذكر الله ﷻ، فزادها الله خيرًا وعلمًا وبركة؛ أن علَّمها رسول الله ﷺ تلك الكلمات، وبها تعلَّمها المسلمون إلى يوم المعاد.

وأمَّا صيام الهواجر، والصبر عن لذَّة الماء البارد في رمضاء جزيرة العرب حِسبة لله؛ فهم أهلها، ودونك حديثا في صحيح مسلم، يجلي لك خفيَّ ما ذُكِر، ويفصِّل مجمل ما اختُصِر، ويزيدك من بركة العلم إدراك حكمة النَّبِيِّ ﷺ في نصحه لأصحابه وأمَّته:

عن سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ ﵄ قَالَ: أُخْبِرَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ يَقُولُ: لَأَقُومَنَّ اللَّيْلَ وَلَأَصُومَنَّ النَّهَارَ، مَا عِشْتُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**آنْتَ الَّذِي تَقُولُ ذَلِكَ؟**» فَقُلْتُ لَهُ: قَدْ قُلْتُهُ، يَا رَسُولَ اللهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «**فَإِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ، فَصُمْ وَأَفْطِرْ، وَنَمْ وَقُمْ، وَصُمْ مِنَ الشَّهْرِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، فَإِنَّ الْحَسَنَةَ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، وَذَلِكَ مِثْلُ صِيَامِ الدَّهْرِ**» قَالَ قُلْتُ: فَإِنِّي أُطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، قَالَ: «**صُمْ يَوْمًا وَأَفْطِرْ يَوْمَيْنِ**» قَالَ قُلْتُ: فَإِنِّي أُطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**صُمْ يَوْمًا وَأَفْطِرْ يَوْمًا، وَذَلِكَ صِيَامُ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَام، وَهُوَ أَعْدَلُ الصِّيَامِ**» قَالَ قُلْتُ: فَإِنِّي أُطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ**» قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرٍو ﵄: «**لَأَنْ أَكُونَ قَبِلْتُ الثَّلَاثَةَ الْأَيَّامَ الَّتِي قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَهْلِي وَمَالِي**»[1].

---

(1) رواه مسلم (2/ 812 رقم: 1159)، وغيره.

● زهدهم ﭫ في دنيا الحطام

صِدِّيق الأمَّة ﭬ يؤمن بالله ﷻ ويصدق رسوله ﷺ، فيُؤذى ويُضرب حتى يُغمى عليه، ويُحمل إلى بيته وهو كذلك، وهو مَنْ هو في قومه نسبًا وشرفًا ومالًا، لكنه يصبر ويحتسب، فتأخذ أباه عليه رقَّةٌ فيخاطبه وهو متعجِّب لأمره: « **يَا بُنَيَّ، إِنِّي أَرَاكَ تُعْتِقُ رِقَابًا ضِعَافًا، فَلَوْ أَنَّكَ إِذْ فَعَلْتَ مَا فَعَلْتَ أَعْتَقْتَ رِجَالًا جُلْدًا يَمْنَعُونَكَ وَيَقُومُونَ دُونَكَ؟ قَالَ: فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ** ﭬ: **يَا أَبَت، إِنِّي إِنَّمَا أُرِيدُ مَا أُرِيدُ للَّه** ﷻ»[1].

نعم، إنه يريد الله والدار الآخرة، ومن كان هذا شأنه، فإنه إذا تصدَّق نسي الدنيا وما فيها؛ لذلك فجميع ماله صدقة لله، لا يُبقي منه دينارًا ولا درهمًا، ولا عجب، فقلبه كلُّه لله، لم يَبْقَ فيه للدنيا مقدار نَفَس.

وهذه ابنته الصِّدِّيقة أمُّنا عائشة ﭭ تُذبح في بيتها الشَّاة للأكل، ثمَّ يسألها النَّبي ﷺ: «**مَا بَقِيَ مِنْهَا؟**» فتجيب: «**مَا بَقِيَ مِنْهَا إِلاَّ كَتِفُهَا**». جواب عظيم عِظَم جود أهله وكرمهم وزهدهم في دنيا الحطام. لكنه ﷺ علَّمها جوابًا أعظم، فقال لها ﷺ: «**بَقِيَ كُلُّهَا غَيْرَ كَتِفِهَا**»[2]. إنها مدرسة النُّبوَّة أيها الكريم.

وعثمان ذو النُّورين ﭬ «**اشْتَرَى مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ الْجَنَّةَ مَرَّتَيْنِ بَيْعَ الْخَلْقِ: حِينَ حَفَرَ بِئْرَ رُومَةَ، وَحِينَ جَهَّزَ جَيْشَ الْعُسْرَةِ**»[3].

---

(1) السيرة النبوية لابن هشام (1/ 319).

(2) رواه الترمذي (225/4 رقم: 2470)، وصحَّحه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (2544).

(3) **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد الأصبهاني، دار السعادة – مصر (58/1). وهو من كلام أبي هريرة ﭬ.

إنَّ قصص الصحابة ﷺ في هذا الباب أوسع من أن يَسَعها الكتاب، فكيف بمبحث جزئي منه، لكن فيما ذُكِر **ذِكْرى لمن كان له قلبٌ أو ألقى السَّمع وهو شهيد.**

- **تجرد قلوبهم لله ومرابطتهم التامة لدينه**

وأمَّا نبأهم في هذا فأمر عجيب، يهاجر الرَّجل منهم الهجرتين، وما أكثر من شهد مع الرسول ﷺ الغزوات كلها، ويقاتل الأب منهم ابنه والابن أباه، حتى تعلو كلمة الله، ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحُجُرات:15].

ومن أروع القصص في هذا الباب قصة عبد الله بن عبد الله بن أُبَي بن سلول، اسمه مثل اسم أبيه، تماثل الاسمان، ولكن شَتَّان بين القلبين شَتَّان ، أمَّا الأب فهو عبد الله بن أُبَي بن سلول؛ رأس المنافقين، ومثير الفتن في مدينة المسلمين، وأمَّا الابن عبد الله فهو الصحابي الجليل المجاهد في سبيل الله، ومختصَر قصَّته مع أبيه – كما نقلها أهل السِّير – أنَّ رأس المنافقين عبد الله بن أُبَي في غزوة بني المصطلق؛ قال كلمته المشهورة التي قصَّها القرآن: «**لئن رجعنا إلى المدينة ليُخْرجنَّ الأعَزُّ منها الأذلَّ**»، وهو يقصد – قبَّحه الله – بالأعزِّ نفسه، وبالأذلِّ رسول ﷺ، فما وَقَرت تلك الكلمة في أذن ابنه عبد الله ﷺ حتَّى أخذ سيفه وهو بِوَادي العقيق، «**فجعل يتصفّح الرّكاب حتى مرّ أبوه، فأناخ به، ثم وطئ على يد راحلته فقال أبوه: ما تريد يا لكع؟ قال: والله لا تدخل حتَّى يأذن لك رسول الله ﷺ، لتعلم أيهما الأعزّ من الأذلّ: أنت أم رسول الله ﷺ، فمن مَرَّ به من المسلمين يرفده عبد الله بن عبد الله، ويمنع غير ذلك، فيقول: تصنع هذا بأبيك؟! حتى مَرَّ به رسول الله ﷺ فسأل عنه، فقيل: عبد الله بن عبد الله بن أُبَيّ؛ يأبى أن يأذن لأبيه حتَّى تأذن له، فمَرَّ**

رسول الله ﷺ وعبد الله واطئ على يد راحلة أبيه، وابن أُبَيّ يقول: لَأَنَا أذلّ من الصّبيان، لَأَنَا أذلّ من النّساء، فقال رسول الله ﷺ: «خَلِّ عَنْ أَبِيكَ» ، فخلّى عنه»[1].

وكما أسلفت، فليس الكتاب موضع تفصيل أحوال ذلك الجيل الرَّبَّاني، وإنما هي إشارات تؤكد إشراقات النور الإسلامي في قلوبهم، فكان من المناسب خَتْم الإشارات بمثال عن مُرابطات الجيل من النساء، وأجمل مثال لذلك قصة الاعتكاف.

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: «**كَانَ النَّبِيُّ ﷺ، يَعْتَكِفُ فِي العَشْرِ الأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ، فَكُنْتُ أَضْرِبُ لَهُ خِبَاءً فَيُصَلِّي الصُّبْحَ ثُمَّ يَدْخُلُهُ، فَاسْتَأْذَنَتْ حَفْصَةُ عَائِشَةَ أَنْ تَضْرِبَ خِبَاءً، فَأَذِنَتْ لَهَا، فَضَرَبَتْ خِبَاءً، فَلَمَّا رَأَتْهُ زَيْنَبُ ابْنَةُ جَحْشٍ ضَرَبَتْ خِبَاءً آخَرَ، فَلَمَّا أَصْبَحَ النَّبِيُّ ﷺ رَأَى الأَخْبِيَةَ، فَقَالَ: «مَا هَذَا؟» فَأُخْبِرَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَلْبِرَّ تُرَوْنَ بِهِنَّ» فَتَرَكَ الِاعْتِكَافَ ذَلِكَ الشَّهْرَ، ثُمَّ اعْتَكَفَ عَشْرًا مِنْ شَوَّالٍ**»[2].

وبغضِّ الطَّرْف عن قَبول النَّبِيِّ ﷺ فعلهن من غيره، فالمقصود هو تلك الهمة السامية التي حَلَّقَتْ بهنَّ في سماء المرابطة في عبادة الله ﷻ، والتنافس في نيل مرضاته ﷻ.

---

(1) **سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد**، محمد بن يوسف الصالحي الشامي، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان الطبعة الأولى (4/ 352).

(2) رواه البخاري (48/3 رقم: 2033)، وغيره.

وصدق من قال:

وَلَـوْ كُـنَّ النِّسَـاءُ كَمَـنْ فَقَـدْنَا ... لَفُضِّـلَتِ النِّسَـاءُ عَلَـى الرِّجَـالِ

فَمَا التَّأْنِيثُ لِاسْمِ الشَّمْسِ عَيْبًا ... وَلَا التَّـذْكِيرِ فَخْـرًا لِلْهِـلَالِ

❖ **الفرق بين جيل الصحابة رضي الله عنهم وجيل المؤمنين مع موسى عليه السلام**

فرق عظيم، فجيل الصحابة هم الذين خلَّد التاريخ بطولاتهم في نصر الدين ونشره، حتى كُتِبت البطولة اسمًا لغزوة حَقٍّ: ذات الرِّقَاع، سمِّيت الغزوة بهذا الاسم؛ لأنَّ مجاهديها من الصحابة كانوا حُفاة لا نِعال لهم، قد أَدْمَت الحجارة أقدامهم في سبيل الله، فلم يجدوا إلا رقاعًا يلفُّون بها أقدامهم من الدَّم، فقارِن هذا بمن قيل لهم: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ٢١ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ٢٢﴾ [المائدة: 21-22].

والفرق بينهما كالفرق بين بلال رضي الله عنه وهو فوق جمر الرمضاء، تحت الصخرة الصمَّاء يقول أَحَد، أَحَد، ولا يخشى الهلاك، وبين من أراهم الله أعظم الآيات، وأبهر المعجزات، ونجَّاهم من عدوِّهم فرعون وأهلكه غرقًا في البحر، فلمَّا وضعوا أوَّل قدم في البَرِّ قالوا: ﴿يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ١٣٨﴾ [الأعراف:138].

● وقفة للتأمل[1]

إن المتأمِّل في تاريخ المسلمين يتَّضح له أنه كان أطوارًا، صعود إلى قمة المجد الآخذ بزمام القيادة، قيادة الحضارة العالميَّة بنظام الكتاب الإلهيِّ المبارك والسنة النبوية المشرَّفة، إلى طَوْر آخر ضِدِّ سابقه: نزولٌ إلى حضيض التَّبعية والانهزام الحضاري والنفسي؛ كالذي نعيشه بمرارة منذ زمان، وبين هذا الطَّور وذاك نزول وارتقاء، غير أنَّ أهم ما يُستخلص من ذلك هو أن الارتقاء إلى قمَّة القيادة والرِّيادة والسِّيادة لم يكن إلا بتحكيم شرع الله تعالى في جليل الأمر وقليله، وهو المنهج النُّورانيِّ الذي أخرج الله تعالى به جيل الصحابة رضي الله عنهم من ظلمات جاهلية جهلاء، إلى نور يهدون به أممًا في مشارق الأرض ومغاربها، أخرجهم من قوم أذلة على هامش التاريخ، إلى أمة خَطَّت بأقلام مجدها الإيماني أعظم تاريخ.

ومهما يكن، فاعلم – أخي المؤمن – أنهم ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ ولكنَّ الله ﴿مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٨﴾ بعزَّ عزيز أو ذلِّ ذليل، كما صحَّ بذلك الدَّليل.

---

(1) **للتصميم**: يمكن جعل هذه الفقرة في شريحة انفجرافيك مميزة حسب خبرة المصمم.